حبيب بن مسلمة

أعـــلام القـــادة

القائد حبيب بن مسلمة

هو حبيب بن مسلمة بن مالك الأكبر الفهري القرشي، أبو عبد الرحمن، يعتبر من أقران خالد ابن الوليد وأبي عبيدة في الشجاعة والإقدام والأثر الجميل في الفتوح الإسلامية؛ لأنه شب على الحرب، وألف منذ صغره الطعن والضرب، فقضى معظم حياته في الحروب، وكان يقال له حبيب الروم لكثرة دخوله بلاد الروم، وما ينال من الفتوح فيها، وقد روى الخطيب عن مصعب بن عبد الله أنه قال: " كان حبيب شريفا قد سمع من النبي ﷺ، وأنكر الواقدي سماعه".

وقال مكحول: " سألت الفقهاء، هل كان لحبيب صحبة؟ فلم يعرفوا ذلك، فسألت قومه فأخبروني أنه قد كانت له صحبة "، وقال العباس الدوري: " أهل المدينة ينفون عنه الصحبة، وأهل الشام يثبتونها " (١).

كان حبيب على صغر سنه يتنقل من ساحة عمليات إلى ساحة عمليات أخرى، فاتحا مرة، ومددا مرة أخرى، وكان النصر حليفه في كل معركة خاضها، قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالمدينة غازيا، وكان يومئذ صغيرا، وشهد غزوة تبوك تحت لواء الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وبهذه الغزوة بدأ جهاده وهو يناهز العشرين من عمره القصير، وحين رآه عمر بن الخطاب صلب العود وقوي البدن، جربه تجربة عملية ليرى أي نوع من الرجال هو، فعرض عليه خزائن المال وخزائن السلاح، فاختار

(١) محمد شريف الزيبق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١/ ١٤.

السلاح وعف عن المال، وتفضيل السلاح على المال من مزايا القائد الذي يتغلغل حب الجندية في أعماق نفسه. وقد تولى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنة، مما يدل على ظهور سماته القيادية مبكرا وهو في ريعان الشباب، وولاه عمر بن الخطاب (عجم (الجزيرة) إداريا وقائدا، وليس من السهل أن يولي عمر كل إنسان مثل هذا المنصب الرفيع؛ لأن عمر كان يلتزم بصفات معينة في القائد قل أن تتوافر في الرجال، أخيرا ولاه عمر بن الخطاب (أرمينية) و(أذربيجان) وهي مناطق شاسعة وقيادة مهمة للغاية، نظرا لشدة شكيمة أهلها ولبعدها عن قواعد المسلمين الرئيسية والمتقدمة.

ومارس القيادة والإدارة في عهد عثمان، ولقد كان شجاعا غاية الشجاعة، مقداما غاية الإقدام؛ لما توجه لقتال (الموريان) كان في ستة آلاف، وكان (الموريان) في سبعين ألفا، فقال حبيب لمن معه: إن يصبروا وتصبروا فأنتم أولى بالله منهم، وإن يصبروا وتجزعوا فإن الله مع الصابرين، ولقيهم ليلا، فقال: اللهم أجل لنا قمرها، واحبس عنا مطرها، واحقن دماء أصحابي، واكتبهم شهداء، ففتح الله له. فكان من أسباب انتصاره على عدوه - بالإضافة إلى عامل الإيمان - هو الهجوم الليلي الذي باغت به العدو، وجعل معنوياته تنهار ثم يولي الأدبار. وكان مثالا شخصيا حيا لرجاله من الشجاعة والإقدام، فقد كان يقود رجاله من الأمام، يقول لهم: اتبعوني، ولا يبقى في الخطوط الخليفة مؤثرا السلامة والعافية، وحين عزم أن يبيِّت (الموريان) سمعته امرأته يذكر ذلك، فقالت له: وأين الموعد؟ فقال: سرادق موريان أو الجنة. وبيَّت حبيب عدوه وقتل من صادفه في طريقه، فلما

أتى السرادق وجد امرأته قد سبقته إليه. فلم يكن وحده بطلا يضرب لرجاله بأعماله البطولية أروع الأمثال، بل كانت امرأته بطلة يقتفي الأبطال آثارها في التضحية والفداء.

وكان يستشير رجاله ويتقبل مشورتهم، وكان لا يستأثر بالرأي دونهم، بل كان يتصنت ليتلقف آراء رجاله، ويطبق ما رآه حسنا، وينفذ ما يجده صوابا، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات الشورى قبل المعارك وفي أثنائها وبعدها؛ فقد سمع يوما أحد رجاله يقول: لو كنت ممن يسمع حبيب مشورته، لأشرت عليه بأمر يجعل الله فيه لنا نصرا وفرجا إن شاء الله، واستمع حبيب لقوله، فقال أصحابه: وما مشورتك؟ فقال: أشير عليه أن ينادي بالخيول فيقدمها، ثم يرتحل بعسكره فيتبع خيله، وتوافيه الخيل في جوف الليل، وينشب القتال، ويأتيهم حبيب بسواد عسكره مع الفجر، فيظنون أن المدد قد جاءهم فيرعبهم الله، فيهزمهم بالرعب.

ونادى حبيب بالخيول، فوجهها بليلة مقمرة مطيرة، ثم ارتحل وراء خيوله، ولكنه عاد إلى عدوه في السحر، فحمل وحمل أصحابه فانهزم العدو وأصابوا غنائم كثيرة.

كان حبيب صاحب كيد، يفكر ويقدر، ثم يستشير رجاله ويستطلع ساحة القتال، ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدو، ثم يبني بعد ذلك خطته العسكرية على هدى وبصيرة.

إن أعمال حبيب الجهادية خطط مدبرة ولم تكن خططا ارتجالية، لذلك رافق النصر أعلامه في أخطر ساحات القتال في الفتح، وبالإضافة إلى تلك المزايا أو قبلها كان حبيب مؤمنا حقا صادق الإيمان، وكان إذا لقي عدوا أو ناهض حصنا يحب أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري:

كانت الروم قد أجلبت على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أول خلافة عثمان، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بالكوفة أن يمد إخوانه بالشام، فأمدهم بثمانية آلاف عليهم سلمان ابن ربيعة الباهلي، فظفر المسلمون بعدوهم بعد أن غزوهم في أرض الروم فأسروا منهم وغنموا. وكان تحالف الروم والترك قد تجمع لملاقاة المسلمين الذين غزوا أرمينية من الشام، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يبيِّت قائدهم الموريان، أي يباغته ليلا، فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة.. ثم بيتهم فغلبهم، وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه. وواصل حبيب جهاده وانتصاراته المتوالية في أراضي أرمينية وأذربيجان، ففتحها إما صلحا أو عنوة.

لقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينية البيزنطية؛ فقد أباد جيوشا بأكملها للعدو، وفتح حصونا ومدنا كثيرة. كما غزا ما يلي ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط وملطية وغيرهما، وفي سنة ٢٥ هـ غزا معاوية الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرسوس خالية، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وواصل قائده قيس بن الحر العبسي الغزو في الصيف التالي، ولما فرغ هدم بعض الحصون القريبة من أنطاكية كي لا يفيد منها الروم[1].

(١) محمد شريف الزيبق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٧ - ١٩، الصلابي، عثمان بن عفان شخصيته وعصره، ١ /٢٤٤.

لقد كان حبيب بن مسلمة مجاب الدعوة فقد أخرج البيهقي والطبراني عن أبي هريرة أن حبيبا كان مستجاب الدعوة، وكان قد أمر على جيش، فدرب الدروب، فلما لقي العدو قال للناس: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:«لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمن بعضهم - أو قال: سائرهم - إلا أجابهم الله»، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اللهم احقن دماءنا، واجعل أجورنا أجور الشهداء[1].

لقد كان حبيب قائدا فذًّا، جمع مزايا القائد الفذ: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العلمية)، والثقة بالله القوي العزيز.

إن حبيب بن مسلمة أسدى للفتح الإسلامي خدمات لا تنسى، فهو بدون شك من ألمع قادة الفتوح في عهد عثمان.

وقد توفى هذا القائد الفذ سنة اثنتين وأربعين هجرية، فكان عمره يوم توفى أربعًا وخمسين سنة قمرية، وكانت حياته قليلة في تعداد السنوات، كثيرة في تعداد جلائل الأعمال، قصيرة في عمر الزمن، باقية آثارها على مر الدهور وتوالي السنين والقرون. رضي الله عن الصحابي الجليل، الإداري الحازم، السياسي المحنك، القائد الفاتح، حبيب بن مسلمة الفهري[2].

وقال أبو زرعة الدمشقي: إن لحبيب ولدا كثيرا عندنا بحوران، ومنزلة بطرف من أطراف حوران، وكان بعضهم يصهر إلي، ورثاه شريح بن الحارث بقوله:

ألا كل من يدعى حبيبا وإن بدت ::: مروءته يفدي حبيب بني فهر
همام يقود الخيل حتى كأنما ::: يطأن برضراض الحصا جاحم الجمر

(١) محمد شريف الزبيق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٧ - ١٩.

(٢) محمد شريف الزبيق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٧ - ١٩، الصلابي، عثمان بن عفان شخصيته وعصره، ١ /٢٤٤.

رضي الله عنه وأرضاه وعفا عنه في المجاهدين والقادة الفاتحين[1].

مواقف من حياته:

في سرادق الطاغية تقاتل الترك :

وكان حبيب بن مسلمة الفهري رجلا غزاء للترك فخرج ذات مرة الى بعض غزواته فقالت له امرأته: أين موعدك؟ قال سرادق الطاغية: أو الجنة إن شاء الله تعالى قالت: إني لأرجو أن أسبقك إلى أي الموضعين كنت به فجاء فوجدها في سرادق الطاغية تقاتل الترك[2].

عظام أهل الكهف:

قال قتادة: وغزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بالكهف فإذا فيه عظام، فقال رجل: هذه عظام أهل الكهف. فقال ابن عباس رضي الله عنه: لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة. وقال وهب والسدي وغيرهما: وأسماؤهم مكسلمينا وهو أكبرهم ورئيسهم، وأمليخا وهو أجملهم وأعبدهم وأنشطهم، ومرطونس، ويوناس، وساربتوس، وبطنيوس وكندسلطنوس، وكلبهم قطمير يكتب ذلك للنوم ولبكاء الأطفال[1].

---

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٤٠٩، طبقات خليفة: ت ١٦٢، ٢٨٣٠، المحبر: ٢٩٤، التاريخ الكبير ٢ / ٣١٠، التاريخ الصغير ١ / ١٢٩، الجرح والتعديل ٣ / ١٠٨، المستدرك ٣ / ٣٤٦ و٤٣٢، جمهرة أنساب العرب: ١٧٨، ١٧٩، الاستيعاب: ٣٢٠، تاريخ ابن عساكر ٤ / ٩٠ ب، أسد الغابة ١ / ٣٧٤، تهذيب الكمال: ٢٣٢، تاريخ الإسلام ٢ / ٢١٥، تذهيب التهذيب ١ / ١٢٠ آ، العقد الثمين ٤ / ٩٤، الإصابة ١ / ٣٠٩، تهذيب التهذيب ٢ / ١٩٠، خلاصة.
تذهيب الكمال: ٦١، تهذيب ابن عساكر ٤ / ٣٨، محمد شريف الزبيق، حبيب الروم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ٢١ /١٩.

(٢) أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ٢٩٧/١.

(١) الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ١٥٨/٢.

من خطب حبيب بن مسلمة

أما بعد: فإن عثمان بن عفان ﷺ كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز و جل، وينيب إلى أمر الله تعالى فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه، فقتلتموه ﷺ فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم، فقال له علي بن أبي طالب: وما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر اسكت، فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام: وقال له والله لتريني بحيث تكره فقال علي وما أنت لو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت على أحقرة وسوءا اذهب فصوب وصعد ما بدا لك، وقال شرحبيل بن السمط إني إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي أجبته به، فقال: علي نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبته به [1].

* * *

(١) جمهرة خطب العرب، ١ /٣٣٥.